- معذرة، ماذا أستطيع أن أقدّمه لك من عون؟
- دوري ينحصر في حلقتيْن، ودور ابنتي في حلقة واحدة.
- وما يعني هذا؟
- يعني أن أجرنا سوف يكون هزيلاً.
- وكيف تُحلّ هذه المشكلة؟
- تطيل من دوري ودورها، أكرمك الله!
- ...
- إنني في احتياجٍ شديد، لا أراك الله كرباً!
- حاضر.

لم أدر كيف وافقتُها بسرعة على مطلبها، ولا كيف سأتصرف مع النصّ أو المخرج وفاءً 'وعدي لها. انتحيتُ بالمخرج جانباً، وقررتُ إتقان تمثيليّةٍ أخرى أؤديها أمامه لأقنعه بما نويتُ عليه من تغييرات في بعض الحلقات بالحذف والإضافة. ولم أدرِ أيضاً: هل أتقن المخرجُ التمثيلَ حين وافقني، أم أنَّه صدّقني بالفعل معتقداً أنّ ما قلته حقيقةٌ لا تمثيليّة؟

الاسكندرية

إغماض العين

السيد زرد

لم يكن ممكناً أن تكون النهاية إلاّ على النحو الذي حدث. ما كان لشيء أن يغيِّر من مسار الأحداث وتداعيها، ويُوصِل إلى غير النهاية التي وقعتْ. لا أسعى - من وراء قولي هذا - إلى نفي مسؤوليتي عمّا وقع، بيد أنّها الحقيقة التي يجب الإقرارُ بها.

يمكن البدءُ في استعادة ما جرى من أيّ نقطة، والانطلاق في أيّ اتجاه، لأنه سيتم الوصولُ - حتماً - إلى النهاية نفسها.. تماماً، مثل وضْعِ الإصبعِ على أيّ موضعٍ من الكرة، إذ يمكن الوثوقُ بأننا في منتصف الكرة تماماً.

لا أريد أن أناقش المسألة على صعيد الجبر والاختيار؛ فذلك مستوى آخر للتناول، أرى أنه يزيد الأمر تعقيداً، ولا يفيد على الإطلاق في حالتنا.

فلنبدأْ من أيّ نقطة...

ها هي تتقافز إلى ذاكرتي تلك اللحظةُ التي امتدّتْ فيها يدي لتحوي لأول مرةٍ يدَها، فأُدرك - على نحوٍ ساطع - أنّ هذه المرأة أنثاي، وأنّها لي حتى النهاية.

لم يكن قد انقضى على عودتي من الغربة سوى أشهر معدودة. عدتُ بعد سنواتٍ ممتلئاً بالمال والخواء. رحتُ أفتِّش عن بدايات جديدة للحياة: عن عملٍ بديلاً عن الوظيفة التي تركتُها، وعن زوجةٍ عوضاً عن الحبيبة التي نسيتُ ملامحها، وعن أصدقاء خلافاً للصحاب القدامى. بعد أشهر من العودة، لم أعثر إلاّ على مسكن جديد. انتقلتُ إليه، حاملاً وحدتي وبطالتي وجهامةَ وجهي الأربعينيّ الذي لفحتْه شمسُ الصحراء.

فشلتُ في العثور على عملٍ يلائمني. ولم أجد من يَصلُح صديقاً. أما الأقارب فقد سئمتُ شرهَهم وعوزَهم واحتياجاتِهم التي لا تنقضي.. وتبدَّتْ فكرةُ الزواج مأساويةً وبائسةً إلى حدٍّ مفجع.

قرّرتُ أن أستغني بنفسي عن العالمين. فأحضرتُ كلَّ صنوف الخمور، واستحضرتُ كلَّ نساء العالمين عبر «الدشّ»، ورحتُ أصرفُ أيامي مخموراً مستثاراً. وإذ يستفسر الأقاربُ عن حالي، أزعم أني منشغلٌ بدراسة مشروعٍ كبير.

لبثتُ هكذا وقتاً لا أحصيه، ربما أسبوعاً أو أشهراً أو عاماً.. لكنْ صرتُ كأنني كنتُ أحيا هكذا منذ ولدتُ، وكأنني سأظلّ كذلك أبداً.

*

رنينُ الجرس أفزعني، أصيلَ أحد الأيام، فانبعثتُ من مرقدي، دائخاً عطشاً.

فتحتُ الباب لأجدها أمامي بثيابها البيتية وشعرها المحلول، تومئ إلى شقّتها المقابلة وتسأل عن انقطاع المياه. استغرقتُ وقتاً أطولَ من المألوف حتى أدركتُ الأمر. وغمغَمْتُ بأني لا أعرف. أزاحتني برفق، ودخلتْ إلى المطبخ تفتح صنبور المياه، لتتأكد من أنّ المياه مقطوعة عن كلّ الشقق.

كنتُ ما أزالُ متسمِّراً ببلادةٍ جوارَ الباب، حين أبتْ تتفحّصني والمكانَ. ضحكتْ وهي تشكرني، فمددتُ يدي مرتبكاً أشدُّ على يدها، لتتوهّج بداخلي الشرارةُ التي ما كنتُ لأخطئها.

في اليوم التالي، في الموعد نفسه، كان رنينُ الجرس، وكانت هي متجمّلةً في ثيابٍ بيتيةٍ أكثر فتنةً، تقدِّم إليّ طبقاً من الحلوى صنعتْه بيديْها. لم تصغِ لممانعتي، ودخلتْ إلى حيث وضعتْه.

خلال أيام، كانت قد عرفتْ كلَّ شيء عني، وعرفتْ طريقها إلى سريري، وعرّفتني بزوجها الموظّفِ صباحاً وسائقِ التاكسي إلى ما بعد منتصف الليل، المكدودِ دوماً، والمدين بباقي أقساط ثمن السيارة.

في التوقيت الذي رأته مناسباً اقترحتْ أن أسدّد عنه الأقساط، وأن أشاركه في التاكسي. لم أمانع، ولم يعترض. فكانت تأتي به في الأمسيات ليجلسا معي تاركيْن ابنتَهما نائمةً. فنتظاهر ثلاثتنا بأننا نتحاسب في إيراد السيارة.

*

لا أعرف تحديداً متى أحسستُ أنّ زوجها يدرك طبيعة علاقتي بامرأته، وأنه يتقبّل ذلك لأسبابٍ لا أعلمها.. بل كدتُ أجزم أنّ ابنتها الصغيرةُ يداخلها شيءٌ من الإدراك، يجعلها تعمل على ابتزازي بطلبها الملحّ للُّعب وللحلوى.

لبثنا في تظاهرنا الكاذب وتواطئنا المكشوف، متوائمين تماماً، تكتنفنا غلالةٌ من الرضا والسكينة. كنّا في حالةِ تعادُلٍ؛ لم يُغبَنْ أيٌّ منا: أتغاضى عن حصّتي في إيراد التاكسي، وأتقاضى مقابلاً شهيّاً من الجسد الأنثويّ الباذخ، دون أن أنسى أداء فريضتي من حلوى الصغيرة ولعبها.

كنا شركاء: التاكسي، يركبه هو طيلة اليوم، ويحرث به دروبَ المدينة ويستأثر وحده بنتاجه، وفي آخر الليل، يتركه أسفلَ العمارة مستهلَكاً... والمرأة، كانت لي طوال اليوم، أمتطيها وأجوب بها شوارعَ اللّذة فوق سريري، وفي آخر الليل، أتركها له ممصوصةً هامدة.

كان يمكن أن نستمرّ هكذا إلى الأبد، في تعادلٍ واتزان، بلا ضغينة أو إحساس بالخسارة. لا أعرف ـ تحديداً ـ ماذا أقلق سكينتنا وأخلّ بوضعية الاتزان: أهو كلام الجيران الذي أخذ يتناثر من حولنا ويترامى على أعتاب مسامعنا؟!.. أم مردّ الأمر إلى أنّ كلاً منا أشبع إلى حدٍّ ما احتياجاتِه، فَرُحْنا نطمح إلى أشياء أخرى ونتطلع إلى المزيد، فأراد هو الاستئثارَ بالإيراد والزوجة، وورغبتُ أنا في الجمع بين اللّذة والربح؟

فجأةً، وبزعم تنبُّهه إلى الشائعات، امتنع عن الحضور، ومَنَعَها هي الأخرى وشدّد الرقابةَ عليها.. لكأنّه ما باعني ـ زمناً طويلاً ـ جسدَ امرأته وحصّل الثمنَ نقداً وحالاً.. لكأننا ما كنا ـ جميعاً ـ متواطئين.

وكانت المواجهةُ الدامية، التي تركتْ آثارها على جسدي وملابسي، وجعلتني أقعي على الأرض بجوار ثلاث جثثٍ مسجّاةٍ، أحاول إغماضَ العين، في انتظار مجيء مَنْ يقبض عليّ.

بور سعيد

ختان

علي السعدي

هذا الصَّيْف لي، إنّه دوري. الصيف الماضي كان لأخي إسماعيل، ليس كله، بل بأسبوع كامل... لا، أكثر من أسبوع قضاه في الحجرة مع «بدرية»، بدشداشته البيضاء وطاقيته المطرّزة، ينزعهما كلّ يوم ويبقى عارياً. رأيته من الرازونة[1]. لم أر بدرية تفعل مثله، كانت تختبئ خلف المخدة طاوية ذراعيْها. انتبه لي مرّة، فرشّني بالماء.

أنا سأبقى أسبوعين لا ألعب إلاّ مع العروس التي سيُحْضرها أهلي. أخي إسماعيل يذهب إلى الحقل مع أبي، وبدرية تساعد أمي وخالتي. أما أنا فألعب مع عروستي ولا ألعب مع الأولاد.

اليوم، الكلّ مهتمّ بي: أبي وأمي وإسماعيل. إسماعيل كان يغمزني بعينه، وهو يقوم بحركة مضحكة بإصبعيْه مقلِّداً أمي وهي تقصّ القماش. أما خالتي أم إسماعيل فجلست صامتة واضعةً يدها على خدها.

أمي أدخلتني الحمام، وفركتْ جسمي بالليفة والصابون، ولم تسمح لي بطرطشة الماء كما أفعل كلّ مرّة. خرجتُ من الحمام وأنا ألصف نظافة. نشّفتني، وألبستني دشداشتي البيضاء الجديدة، ووضعتْ على رأسي طاقيتي المطرّزة بعد أن مشّطتْ شعري ونظّفتْ أنفي، فصرتُ جاهزاً.

قبل يومين باع أبي أكياس الحنطة وقبض من التاجر نقوداً، أعطى منها للراعي «أبو حسين»، فجلب لنا خروفاً سميناً ولطيفاً... لا مثلَ ذلك الخروف الشرير أبي القرون، الذي جلبه أبي الصيفَ الماضي، فنطحني في إليتي حين حاولتُ التقرُّب منه ومداعبته، فشتمتُه ودعوتُ عليه بالموت. لم أكن خائفاً منه. الخراف لا تعضّ. الشيخ يعقوب يعضّ. أنا لا أحبه. قال إنّ اللّه سيغضب مني. أبي حين غضب من الخروف لأنّه نطحني، ذَبَحَه وقدّم لحمَه للضيوف. فهل سيفعل اللّه بي ذلك؟

كان الضيوف قد جاؤوا لتهنئتنا بزواج أخي إسماعيل الذي يَكْبرني بدستة سنين وأطول مني بمرتين. أنا أيضاً أكلتُ من لحمه. يستأهل! لم ينطح أبي عندما ذبحه، بل اكتفى بالصراخ. هو لا ينطح إلا الصغار، لم أكن أريد ذبحه. الكبار وحدهم يذبحون الخراف التي لا تدافع عن نفسها. لما ضربني إسماعيل صرختُ، لكني ضربتُه بحجر، فصرخ هو أيضاً ولم يضربني ثانيةً لأنّ أبي دافع عني وطرده. لكن الخروف، مَنْ يدافع عنه؟ لو كان له أبٌ لطرد أبي.

اليوم الخميس. أمي مشغولة بإعداد الطعام، والنسوةُ من الجيران والحيّ يملأْن الحوش، منهنّ مَنْ تساعدها ومنهن مَنْ تثرثر. أبي لبس أجمل ثيابه وانشغل بفتل شاربيه. أما الخروف الطيب فصار مقطَّعاً في القدور، تناوشتْه السكاكين، وهذه المرّة ليس انتقاماً لي ـ فهو لم يؤذني بشيء ـ لكنّهم ذبحوه.

توسلتُ إلى أبي ألا يقتله وحلفتُ له: «وحياة اللّه ما نطحني، خروف إسماعيل هو اللي نطحني». لكنّ أبي لم يصغ إليّ. قال: «هذا مو شغلك». أبي يكره الخراف، وحياة اللّه.

كلُّ ما كان يجري اليوم شبيهٌ بما جرى الصيف الماضي، حين جاؤوا ببدرية ابنة خالي من قريتها البعيدة وأسكنوها في غرفة إسماعيل. ثوبُها أبيض وقامتها هزيلة تكاد لا تتجاوزني بشبرين طولاً. صحيح أنّ الكبار وحدهم يتزوّجون، وست سنين عمرٌ قليل، لكنّ ما همّ: فالدنيا فيها كلّ عجيب، وقريتُنا صغيرة، وفوق ذلك، أهلي يَعْرفون أكثر مني وهم فرحون، فلمَ لا أفرح مثلهم؟

لكنّ ما حيّرني أنّ أهلي لم يخصِّصوا لي غرفةً ويملأوها بالأثاث الجديد كما فعلوا لإسماعيل، ولم يخبروني عن اسم العروس ولم يأخذوني معهم إلى بيت أهلها. أبي وحده ذهب إلى بيت الشيخ يعقوب وعاد راضياً يفتل شواربه،

---

[1] ـ الرازونه. الكوّة